أفق الحوار بين الاتصال العقلي والتواصل القلبي

الدكتور: بن لباد الغالي

الحديث عن الحوار يدفعنا دوما كمجتمعات متخلفة أو نامية إلى الشعور بالدونية، و النقص.فيثير في نفسه المحلل المبتدئ غضبا شديدا ، لأنه وفي الحقيقة وجد كل المادة التي عالجت مسألة حوار وإن لم تقيم الجنوب فعليًا فإنها قيمته ضمنيا.

وعلى الرغم من إخفاء الحقيقة عند بعض المحللين ، إلا أنها تظهر من خلال مقارناتهم للعالمين ،الشمالي والجنوبي . لذى فان افتراض حوار ديني ، أو حوار ثقافي ، وأي نوع من الحوار داخل الاديولوجية ظل مجرد حوار يبحث عن الذات ، أو يكرس ثنائية الأنا والأخر ، أو الأصالة والمعاصرة ، ولم يستطع أي باحث التخلص من هده القوالب الجاهزة . بل لم يعد الباحث بإمكانه ولوج عالم الحوار دون أن يمر عبر محطة تاريخية اعتبارها الفكر هي الركيزة الأساسية لتقريب الهوة . لكن في حقيقة المسالة :

* ماهي الأضواء التي سلطت على الحوار . وما ألوانها .؟
* كيف يمكن أن ندرس ونحلل الحوار في ضوء تعايش ثقافي ، وعدم توازن القوى.؟
* ما هي الآليات التي استعملت للحوار ...

إننا في هذه المداخلة لن نـتمكن مـن الإجابـة علـى كـل هـذه التساؤلات ، ولكن سنحاول أن نقارب بعضها ، حتـى نـتمكن مـن الوصول إلى الافتراضات التي اعتبرناها واقعا من خلال العنوان .

حيث نعتبر الاتصال القلبي هو الأداة الفاعلة لتفعيل الحوار .

إذا حاولنا تشخيص المراحل التي مر بها الحوار فإنه انتقل من مرحلة الحوار المباشر أيام الاستعمار إلى حـوار بـين الأقطـاب ، وقـد سميت بعدة مسميات ، ثم تحول إلى صدام.

وأساس كل حوار هو الاتصال ، الـذي كـان دومـا هـو الأداة الأولى والأخيرة في تمرير الخطاب بمختلف الأشكال .

وإن حاولنا أن نقدم تعريفا للاتـصال ، فلـن نجـد إجمـاع علـى تعريف واحد ، بل كلٌ عرفه حسب المجال المستعمل فيه ، ومن باب الإشارة فإن مصطلح الاتصال مأخوذ من مصطلح communication ، أما علماء العرب فقد أمدوه بالتعريف المختلفة :

(الاتصال يعني الوصلة أي ما اتصل بالشيء . قـال" الليـث" كل شيء اتصل بـشيء فيمـا بينهمـا وصـلة ، أي اتـصال و ذريعـة ،ووصلت الشيء وصلا وصلة ، والوصل ضـد الهجـران . وصـول

الشيء بالشيء وصولا ، وتوصل إليه ، أي انتهى إليه وبلغه ، ومعنى وصل إليه وأوصله أي أنهاه إليه، وأبلغه إياه)).1

الملاحظ أن مفاهيم الاتصال تتعدد عند العرب ، فالاستخدامات الاصطلاحية في الاتصال قد يتحول إلى الوصال ، وقد يتحول إلى الوصول ، وهذا حسب الآليات المستخدمة للاتصال .

فالأدباء مثلا يعتبرون أداة الاتصال مع القارئ هي النص ، وبالتالي اقتصر فعل الاتصال في هذه الحالة على الخطاب الموجه من المبدع إلى المتلقي ، والنص هو الرسالة ، ولم يخرج فعل الاتصال عن هذه المحطات الثلاث التي رسمها " جاكبسون " الذي أطلق عل النص "رسالة" message وجعل المبدع " مرسلا " يرسل إلى الملتقى " المستقبل " رسالة تقتضي سياقا معَينا تؤدَيه .

هذا النوع من الاتصال قد نصطلح عليه باسم الاتصال المسطَح ، ويكون في الغالب بين النخب ، فالنص في العادة لا يخاطب عامة الناس ، بل هو موجه إلى فئة معينة . ومساحة النص الجغرافية هي مساحة مسطحة ومعروفة الشفرة عند جمهورها ، هذا النوع من الاتصال كان فعالا حين كان المبدع يعيش مع كل تلك الفئات الاجتماعية ليعبر عن أحلامهم وأفكارهم ودواتهم . وكل ماكان يعيش في خواطرهم .

هذا النوع من الاتصال كان ناجحا حين كان يريد الأخر تمرير خطابه الأيديولوجي عن طريق النص الأدبي أو المسرحي وحتى النقدي أو الغنائي أو التحليلي ،وحتى في خطابه الشفوي لأنه وببساطة كان حاملا للحضارة وبالتالي كان هو النموذج الذي يمكن أن يقلده المستضعف أو المتخلف ، إنه المثال لكل الذين عاشوا خارج دائرة الحضارة .

في هذه المحطة لابد أن نشير إلى قضية جد مهمة هي ﴿ فعل الاتصال " .

كان هذا الفعل ممكنا ومتاحا حين كان المالك للحضارة يريد أن يسيطر جغرافيا وبشريا على المتخلف لأنه كان يحتاج إلى مناطق تجريب واستنزاف للخيرات ، فالحاجة كانت ملحة .

أما حين تطور المتحضر وتأكد من كل فرضياته وحصل على القوة وحقق تطوره الصناعي والزراعي وثروته الفكرية والاستقرار الاجتماعي ، حينها غلَق كل الأبواب والمنافذ على الآخر لأنه لم يعد بحاجة إليه ، ولأنه اعتبره مشوها للحضارة والإنسانية ، إنه رمز للهمجية و الفوضى .

...ماذا سنفعل وكيف سنتصل ، ومن سنحاور . من الصعوبة بمكان حل هذه الإشكالية لأنها ليست ببساطة تحدد وبدقة علاقات

ثنائية بين قطبين مختلفين جنسيا ، وجغرافيا وإيديولوجيا ، وثقافيا ، ودينيا ،ولا تربطهما قواسم مشتركة إلا المصلحة .

هذه الأخيرة دفعت بالقطبين إلى فعل اتصالي كأساس لخلق نـوع من الشراكة ، وقد نعرَف هذا النوع من الاتصال بالاتـصال التجـاري . حيث أن المصلحة العليا هي التي كانت تغذي هذا النوع مـن الاتـصال . وقد غُرس هذا النوع من الاتصال في الشعوب المستضعفة علـى شـكل أفكار واتجاهات حداثة تحب الخير لهذه الشعوب ، وإن حاولنـا أن نقـدم تعريفا واضحا لهذا النوع من الاتصال ، فلن نجد أحـسن مـن التعريـف الذي قدمه " علاء هاشم منـاف " حـين قـال" الاتـصال هـو انتقـال المعلومات أو الأفكار أو الاتجاهات والعواطف من فرد إلى جماعة أومـن جماعة إلى فرد عبر الرموز التي تتحـدد بالرسـالة ، كـذلك الاتـصال هـو أساس كل التفاعلات الاجتماعية ، والاتصالات تمكننا من نقل المعارف البشرية" .

لقد تفطن الغرب لفكرة نقل المعلومات والمبادرة بالاتصال وبقـوة ومنذ قرون ، لـذالك صـنع لنفـسه قنـوات تلفزيونيـة مختلفـة الأشـكال والألوان وسيطر على كل وسـائل الإعـلام والاتـصال وبتـالي امتلـك المعلومة ، وفي قانون الإعلام وللاتـصال ،المالـك للمعلومـة هـو المالـك للقوة .

والقـوة هنـا ليـست ماديـة فحـسب ، بـل جملـة الـسلوكيات الموجودة في المجتمعات المتخلفة أساسها تقليد للمجتمع المتطور.

والتفاعل الاجتماعي أو حتـى الحركـي الاجتمـاعي والتطـور الشعبي هو خاضع لنمط التقليد والتبعيـة إن لم نقـل الانـصياع لكـل ماهو يبدوا للعوام تطور وحداثة.

- **مستويات الاتصال.**

لم نتناول بالتفصيل أنواع الاتـصال وذلـك حتـى نـتمكن مـن الإيغال المباشر في فعل الاتـصال . لـذلك سـنتناول في هـذا العنـوان مستويات الاتصال وقد وزعنها إلى محورين ،الأول : المستوى اللغوي والثاني المستوى الباطني .

المستوى الأول اللفظي : يعتبر أهل اللغة واللسانيات والمُعجمية والعلوم اللغوية أن فعل الاتصال خاص باللغة . ومرجعيتهم في ذلك أن الاتصال أداته الأولى والأخيرة هي اللغة ، فبـدون لغـة لا يتحقـق فعل الاتصال لذلك وجد العلماء ومنهم "عمر أو كان" صـعوبة في تعريفه التواصل : " التواصل مصطلح يكتنفه بعض الغموض بسبب غناه المعجمي ، نظرا لدخوله في علاقة ترادف واشتراك مع مجموعـة

من المصطلحات التي تشاركه في الدلالة سواء من حيث الجذر أومن حيث الحقل الدلالي ، وذلك مثل التواصل ، الإيصال ، و الاتصال ، الوصل والتواصل ، الإبلاغ و الإخبار والتخاطب أو المخاطبة ، والتحاور أو المحاورة ".4

وقد يضيف " طه عبد للرحمان" توضيحا لهذا التعريف حيث يعتبر " التميز بين الفئة الأولى ذات جذر المشترك ، حيث جعل التواصل مقولة كبرى تشمل الوصل الذي هو نقل الخبر ، والإيصال الذي هو نقل الخبر مع اعتبار المخبر ، و الاتصال الذي هو نقل الخبر مع اعتبار المخبر والمخبر إليه معا ." 5

وقد أضاف " أو كان" إلى تعريفاته حدود للاتصال ، فاعتبر " التواصل هو تبادل أدلة بين ذات مرسلة وذات مستقلة ، حيث تنطلق الرسالة من الذات الأولى نحو الذات الأخرى" 6

الاتصال على هذا النحو هو خطاب ينقل من طرف إلى طرف أداته اللغة ، ولم تتحدد مدى أهميته بعد.

لذلك كثير من الباحثين اقتصر على وضيفة الاتصال في نقل الخبر ، أمَا ما مدى نفاذه في الذات ومدى تقبل الذات للتواصل أو

الاتصال دون الأخر ، و ما هو المستوى الذي يحدد شفرة الاتصال أو المستوى المسؤول عن فعل الاتصال .

إن الاتصال : " كنظرية إبستمولوجية جذورها فلسفية تمتد إلى ميكانيزم العقل لأنها تتمركز في العلاقات الإنسانية من خلال استخدام اللغة المنطوقة أو الشفوية " الكلام" في عملية التوصيل للرسائل او المعلومات إلى المستقبل حيث تحتوي هذه الرسائل على شفرات . وكان لنمو و تطور هذه الرموز التي يرجع أصولها إلى المنظومة العقلية " 7

الذي يمكن أن نستنتجه من هذا القول أن الاتصال فعل عقلي ، باعتبار أن رموز اللغة المعقدة لن تفك إلا بقوة عقلية فسلطته هي التي تتمكن من الربط بين المتغيرات . لذلك حينما قدم صاحب كتاب فلسفة اتصال و الإعلام مفهوما للاتصال اعتبره " متشعب الاستخدامات في فروع إبستمولوجية عديدة وكان للجهود العلمية – أثراً كبيراً لتطوير هذا المفهوم على أساس المنطق العقلي وهو إشارة إلى تفاصيل علم الاتصال الذي تركز في السبب الحقيقي وهي القوة العقلية التي دشنت المبدأ الحقيقي للكائن الذي يريد تحقيق مبدأ الأشياء الجريئة وترافقها مع بعضها البعض – " .8

وعلى هذا الأساس نحدد وظائف الاتصال:"

1 ـ الوظيفة المعرفية : حفظ الأفكار وتمثيل الوقائع.

2ـ الوظيفة التعبيرية : الأعراب عن المشاعر وإبداع العواطف .

3ـ الوظيفة التواصلية : تبليغ شيء ما ، الأعراض وإنجاز عقود.

أشار " أرنست كاسيرر" إلى فلسفة الأشكال الرمزيـة وبحـث عن نسقيها إلى ثلاث وظائف هي على النحو الأتي :

أـ الوظيفة التمثيلية : ولم يقدم لها كاسيرر أي تحليـل ، وتنتمـي إلى دائرة " الحدس" وإدراك الأشياء.

ب ـ الوظيفة التعبيرية : وهـي تمثـل خـصية التجلـي والإدراك الحي المباشرين، وتنتمي إلى دائرة " المحسوس" .

ت ـالوظيفة الدلالية و لها علاقة بجهاز مفاهيم الفكر وقضايا ه النظرية ، وتنتمي إلى دائرة " المعنى" أو المفهوم ." 9

من خـلال الوظـائف المـذكورة نتوصـل إلى مجـال الاتـصال والتواصل كان مقتصرا في بداياته الأولى على النـشاط العقلـي فقـط واللغوي ، إلا أن" أرنست" قد أشرك الجانب النفسي مع العقلـي من خلال الوظائف المستحدثة فكلٌ من الوظيفة التمثيلية والتعبيرية و

الدلالية لها صفة الاشتراك في تحقيق فعل الاتصال كل حسب نظامها ومستواها الذي تتم فيه .

"فعملية الاشتراك والمشاركة في المعنى من خلال التفاعل الرمزي ، تتميز بالانتشار في الزمان والمكان ، فضلا عن إستمراريتها وقابليتها لتنبؤ" 10 .

" فتأثير شخصية على أخرى أو ذات على ذات ، والفرق بينهما أن احدهما مستقبلة والأخرى مرسلة. يحتاج إلى قوة لا لفظية ولا تعبيرية ولا لغوية حتى وإن اعتبر بعض العلماء أن التفاعل الاجتماعي اللفظي أو الرمزي ذو أثر كبير في تنمية القدرات الاتصالية والتواصل إلى مزيد من الفهم لجوانب هذا التفاعل " 11.

إن الاتصال كما عرَفناه في بداية هذه الداخلة ، فعل جد معقد وتتعقد وظائفه كلما اتسعت مساحة الاتصال وتعددت . وباعتبارها ظاهرة إنسانية " يتم فيها نقل المعلومات من شخص إلى آخر" 12.

وكلٌ من الطرفين مشبع بسلوكيات معينة وأفكار معينة وثقافة معينة. إن التعيين هو خصوصية كل فرد التي لا يمكن أن يتنازل عنها او يغيرها بسهولة ، إنها جزء من هويته ومن ثم فإن : " موقف

الاتصال يتوقف إلى حد كبير على قدرة كل طرف من أطراف موقف التفاعل على الاتصال بالأخر والقدرة على التعبير الرمزي" 13.

إن قوة الاتصال وفعَاليته لم تعد تتحكم فيها قوة المصطلح ولا حتى الدلالة .إن وضيفة الفعل ومستوياتها على هذا الأساس افترضنا أن الاتصال القلبي هو النمط الفعال الذي بإمكانه أن يعطي صورة واضحة وقوية لفعل الاتصال ، سواء على مستوى الوظيفة أو الفاعلية ، وعلى اعتبار أن مستواه الذي يتم فيه يمتاز بالإنسانية والوضوح ، فالقلب هو المضخة التي إذا صلحت صلح الجسد كله .

وإذا لاحضنا الخطاب القرآني، في الحوار ، فإننا سنقف عند هذا الاستنتاج ، ومن باب التمثيل قصة سيدنا موسى مع فرعون . يقول تعالى :" اذهب إلى فرعون إنه طغى " 24

فرعون : في جبروته وقوته المادية يشبه الغرب وكان لا يُعصى له أمرا ، بل ادعى الربوبية ، وذلك لأنه لم يلقى رد فعل اجتماعي لا لفضي ولا سلوكي .

الله عز وجل- يأمر سيدنا موسى ليذهب إلى فرعون- ، - موسى عليه السلام يحتاج سلاح- ماهو:

"قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي" 28

"شرح الصدر وسعة لتحمل الرسالة." أدوات النبي موسى عليه السلام كانت اتساع صدر وقدرة ربانية تصاحبه وتيسر عمله وفصاحة اللسان ."

إن هذه الأدوات هي كل ما يحتاجه المتصل ليحاور الأكثر منه تطورا.

المعادلة بين موسى عليه السلام وفرعون هي معادلة مجتمع متطور ، وموسى عليه السلام يمثل المجتمع المتخلف – قوم بنو إسرائيل – كيف سيتمكن موسى عليه السلام من التحاور ومن مخاطبة هذا المتعجرف المغرور ، المتكبر الثري ، القوي ، المطاع في المجتمع ، الساحر....إلى آخره.

قال تعالى : " اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى." 17

الخطاب اللين: لمن ؟ .. لطاغية . ومن سمات الخطاب اللين ، مصطلحا ته تكون منتقاة وهادئة .وهذا الخطاب هو خطاب قلبي ،

أي من القلب إلى قلب المتلقي ، لأن المتلقي حين يستقبل هذا الخطاب لا بد أن يكون مستوى نفاذ الكلمات في قلبه قد تجاوز النصف. حتى يتراجع عما هو فيه ، أو يقتنع لما يُنقل له .

والتواصل القلبي هو النموذج الحقيقي لفعل الاتصال.حتى أنه لم يستعمل بجدية في الفترة المعاصرة لأن الجانب العقلي والمادي طغى على فعل الاتـصال ..، لهـذا اعتبرنـا أن كـل محاولـة للحـوار بـاءت بالفشل وذالك لأن فعل الاتصال ، غدته المادة والمشاريع الاقتصادية ، ولم يكن هناك مجال حقيقي لتواصل القلبي من أجل التأثير.

إن نموذج الإنسان الذي يستخدم هذا النوع من الاتصال .لابد أن يكون صاحب رسـالة في حياتـه ، ولا يـتمكن الإنـسان العـادي البسيط من تحقيق هذا النوع من الاتصال . و حتى نتمكن من تحقيق حوار بناء لابد أن نفوض هذا النموذج الإنساني لنحاور الأخر.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1-إبـن منظـور : لـسان العـرب ، دار الفكـر العربـي ، بـيروت، الجـزء الـسادس ، (د.ط، د.ت) ص**936**، ص**938**.

2 –شعبان عبد الحكيم محمد : دور الاتصال و التأثير في تـشكيل الرؤيـة النقديـة عنـد العـرب ، دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيع ، سنة **2011** ص **13**.

3- عـلاء هاشـم منـاف : فلـسفة الإعـلام و الاتـصال –دراسـة تحليليـة في حفريـات الأنـساق الإعلامية –دار صفاء للنشر و التوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى ، سنة **2011** ص **21**.

4- عمر اوكان : اللغة و الخطاب ، إفريقيا الشرق ، بيروت لبنان ، سنة **2001** ص **35**

5- نفس المرجع ص **36**.

6- نفس المرجع ص **36**.

7- علاء هاشم مناف ص **36**

8- نفس المرجع ص **35**.

9- أحمد يوسف :سيميائيات التواصل و فعَالية الحـوار –المفـاهيم و الأليـات –منـشورات مختـبر السيميائيات و تحليل الخطاب ، جامعة وهران، الطبعة الأولى ، سنة **2004** ص **77**.

10- سامية محمد جابر: الإتصال الجماهيري والمجتمع الحديث النظرية والتطبيق .

دار المعرفة الجامعية الإسكندرية .(ـ د.ت) . ص **93**ـ **49**

11ـ محمد محمد الحـسانين : بعـض الـتغيرات النفـسية المرتبطـة بالإتـصال التفـاعلي لـدى بعـض طلاب الجامعة ، دراسة إستطلاعية دلتا للطباعة والتصوير ، الإسكندرية سنة **1989**ـ ص**5**

12 ـ نفس المرجع . ص**5**

13ـ نفس المرجع .ص**5**

14 ـ الآية **24** طه .

15 ـ الآية **28** طه.

16 ـ جلال الدين محمد الحلمي وجـلال الـدين عبـد الرحمـان : تفـسير الجلالـين ، دار الـسلام للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى سنة **2009**.ص**324**

17ـ الآية **44** طه.